منطق المنطق

La Philosophie du langage.

هذا بحث طريف لعلي لم اسبق اليه ، وموضوعه المعاني التي اشتركت فيها الامم على اختلاف بيئاتها ، وتباين لهجاتها . فوضعت من دون تواطؤ بل بوحي الغريزة ازاء كل منها لفظا يدل عليه .

وهذا البحث لخطورته جدير بمن يطرقه ، ان يكون ثابت القدم في لغات مختلفة ؛ غير اني طرقته وليس في حقيبتي سوى لغتين : العربية والتركية متوكئا في سيري على اللغة العامية التي تكاد تكون لغة قائمة بنفسها ، مع شيء يسير لا يستحق الذكر من بعض اللغات المجاورة للغتنا دارا او استعمالا .

ومع قلة بضاعتي في علم الالسن ، بل فاقتي فيه ، اقدمت على الكتابة في هذا الموضوع لانه شاقني ، وعسى ان يشوق غيري ممن لهم ولوع بمثله .

وسوف احرص على اتخاذ الحيطة والاكتفاء بالحد الادنى ، دون ارخاء العنان نظرا لفقري الآنف الذكر . واملي ان ينسج على منوالي — ليكمل مشروعي — من كانوا في اللغات اعلى كعبا ، واطول باعا ، ليقوموا باشباع الموضوع واتراع كأسه اذا هم استطرفوا ما خضت فيه .

وسيكون بحثي مشتملا على مباحث مختلفة منها عامة ومنها ما يتعلق بمفردات اللغة ومنها ما يتعلق بمواد الصرف والنحو ومنها ما يتعلق بعلم البلاغة .

وربما استطردت فاتيت بسوانح لطيفة لم تسخ النفس بافلاتها بعد اقتناص شواردها . هذا وليعلم القارىء اني لا استطيع من الان تحديد الفصول التي سوف اكتب تحت ظلال عناوينها اذ لا ادري ماذا سيعن لي في هذه البيداء المترامية الاطراف ، والشعاب الملتوية التي قدر لي سلوكها .

كما ينبغي ان يعلم اني لا اقطع بالاصابة في جميع ما ستجود به اليراعة لاني قدمت بين يدي عذرا . وكيف اقطع بالاصابة ؟ وانا حديث الدخول الى مجاهل لم تجل فيها يراعة كاتب .

لذلك اقول بكل صراحة ان جميع ما سأنشره من الفصول ان هي إلا ممهدات

تحتمل الرجوع فيها وتسخير البنان في تنقيحها وتهذيبها وان تشرت وذاعت في البلاد.

١ — لابد لكل امة من الامم من الفاظ موضوعة ازاء المعاني الاولى

كل امة مجتمعة لها لسان تتفاهم به، لا بد ان تضع بحكم الغريزة ازاء كل ما يقع تحت حسها من الاشياء وما يعرض لها من الحركات والاوضاع الضرورية وما تشعر به شعورا قويا، الفاظا تدل عليها. وما لم يقع تحت حسها او لم تشعر به فانما تضع له عند وقوعه او قوة شعورها به اي عند تقربه من المحسوسات وذلك اللفظ اما من ثروتها واما مستعار من غيرها منزل على حكم لغتها .

فالارض والسماء والماء والهواء والحيوان والنبات لا مندوحة من وضع اسماء تدل عليها عند جميع الامم وان كانت في احط المنازل من الادراك البشري لانها المواد الاولى لحياتها فلا يعقل ان تفترش الارض ، وتسير عليها ، وتشرب الماء ، وتركب الحيوان ، وتأكل النبات ، وتتقي العواصف ، وهي عارية عن الاسماء التي تدل عليها عند تحريها والالتماس لها والاشارة اليها .

ومن هذا القبيل الحركات والاوضاع التي لا مناص من طروءها كالقيام والقعود والاضطجاع والمسير والاخذ والعطاء وكذلك ما يقوي شعورها به كالجوع والعطش .

واذا تقدمت الامة وطرأ عليها امر زائد على ما ذكرنا كالكوز لحفظ الماء والصفحة لوضع الطعام والمنشار لقطع الشجر ، اضطرت الى احداث اسماء لهذه الحاجيات المستجدة .

ومن هذا القبيل الحركات المتفرعة عن الحركات الابتدائية كالهرب الذي هو فرع من الذهاب، والعدو الذي هو فرع من المشي، والغناء الذي هو فرع من الصوت ، وكذلك ما يفيض به الخيال عند اتساع نطاقه كالحياء والوفاء والبخل والسخاء والرياء والنفاق من المعاني التي لا يعقل وضع الفاظ ازاءها في الابتداء .

وعلى هذا النسق تنمو شجرة اللغة وتنجب اغصانها وتزكو ثمراتها . كل لغة على حسب مرتبة اهلها من الثقافة وممارستها لمعترك الحياة .

دعني الان اضرب لك مثلا : امتنا قبل مائة سنة فانها لم تضع كلمة «قطار» ولا «طيارة» ولا «سيارة» بالمعاني المعروفة اليوم حتى طرقت مسمياتها بلادنا

ووقعت تحت ابصـــارنا فاضطررنا الى التمهيد لهولاء الضيوف الكرام في لغتنا فنقلنا الكلمات المذكورة على وجه التوسع من مواضعها الاصلية دون قطع الصلة بها والزمناها معاني طارئة ما كانت ببال واضعي اللغة القدماء .

فان كانت اللغة غنية ذات ثروة طائلة اخرجت من وفرها ما تستعين به على قرى ضيوفها وإلّا فزعت الى الاستعارة والاستدانة .

ولا يكاد يكون للتطفل على لغة اخرى مبرر صحيح إلّا في شأن اللغات الطفلة التي لم تبلغ اشدها .

اما اللغة الواسعة ، العظيمة الثراء ، كلغتنا المحبوبة ، فاخلق بها ان يكون التطفل على غيرها سمة شائنة في جبينها ، فضلا عما في طروء الغرباء والدخلاء على مسكن ، من القضاء على اهله اشخاصا كانوا ام الفاظا .

٢ — من هو الاولى بوضع الاسماء ؟

اهل البيئة التي يظهر فيها المسمى ، اولى بوضع اسم ازاءه فـ (النخلة) على تقدير نشأتها في بلاد العرب ، لا مناص من وضع العرب اسما لها او من هم في حكم العرب من اخوتهم الساميين ، فاذا قدر للنخلة ان تسيح في بلاد اخرى غير عربية ، جاز ان تحتفظ باسمها في ديار الغربة ، كما يحتفظ الكريم بزيه وشعاره ، وجاز ان ترتدي ثوبا آخر وتطمس صبغتها صبغة اخرى .

ومن النوع الاول اسم (الجمل) فانه ظل محتفظا باسمه بعد بلوغه بلاد الانكليز مثلا ، لكن بتحريف بسيط لم يطمس حقيقته .

على انا لا نستطيع ان نجزم بان الانكليز اخذوا لفظة الجمل عن العرب بل من المحتمل انهم اخذوها من بقية اللغات السامية بحكم تدينهم بدين الساميين ودراستهم كتبهم المقدسة ، وما لم يقدر له ان يجوب بلادا غير بلاده لم يكد يحظى باسم جديد في البلاد التي لم يطأها ؛ لكن لا يبعد ان يطأها اسمه فقط بنقل السـائحين او الكتب او الصحف او تجلب ثمرته فتحظى الثمرة بتسمية جديدة كالتمر المسمى عندنا بالتمر الهندي المجلوب من الهند .

وربما وقع ذلك في لغة واحدة اذا اختلفت الاقطار وكان ثمة داع كما جرى للبطيخ الاخضر فانه يسمى في العراق (الرقي) نسبة الى (الرقة) ويظهر انه جلب من جهتها كما سمي اهل الموصل القثاء بالـ (ترعوزي) نسبة الى

(ترغعوز) (١) فيما يظهر .

٣ — استحالة الاحاطة بمناحي لغة واحدة مهما كانت ضيقة النطاق

اذا لم يكن المنقب عن اللغات من اهلها الناشئين في احضانها ، المغتذين بها مع لبن الرضاع ، كان من المستحيل سلامته من الخطأ ، بل استطيع التصريح بذلك في لغة مدينة واحدة لان المدينة قد تشتمل على احياء متباينة اللهجة فتكون له الخبرة التامة في لغة الحي الذي ينشأ فيه دون الاخر

واذا قدرنا احاطة الوطني بلهجات جميع الاحياء فربما فاتته معرفة اصطلاحات الصناع في صناعاتهم ، والعمال في اعمالهم ، من دباغين ، وحاكة وبنائين ، ونقاشين ، واطباء ، وصيادلة ، وارباب سفن وفلاحين ومن الف لفهم .

واذا فرضنا ان غريبا اقام بين ظهراني اهل بلد سنين طوالا فتمرس بهم في اسواقهم واختلف الى مجتمعاتهم فانه يغادر البلد ، وقد فاته شيء كثير مما لا يصل الى الاسواق والمجامع من اصطلاحات النساء في بيوتهن ، والصبيان في العابهم.

وان شئت قصصت عليك قصة ذلك الاجنبي الذي كان مقيما في الموصل وكان ملما بلغتها . فانه كان يلتبس عليه امر (الراء) التي يقلبها اهل الموصل احيانا (غينا) فكان اذا اراد النطق بكلمة (شغل) ، قال : (شرل) ذهابا منه الى ان الاصل [ر] حتى ان الموصلي اذا كان ساذجا وخاطب بعض البغداديين مثلا قال له (برداد) اي (بغداد) .

ومن هذا الضرب اني رأيت بعض السوريين يكتب (اثباب) اي (اسباب) ظنا منه ان الاصل [ث] وكان ساذجا فنبهته عليها . وربما عثرنا في بعض الكتب او الصحف على كلمة (غث وثمين) اي (غث وسمين) وقد جرت بيني وبين بعض فضلاء السوريين مناقشة طويلة اذ ظن ان الثاء هي الاصل وربما عثرنا على تعبير (نذر يسير) اي (نزر يسير) .

ودخل بعض الغرباء الى بغداد فوجد اهلها يقلبون القاف كافا فارسية فظن ذلك امرا مطردا فوقف على دكان فاكهي وقال له : (بكم البورتكال ؟) فضحكوا منه وسيأتيك في فصل الغرائب ما يحملك على الاذعان لهذا .

محمود الملاح

١) راجع معجم ياقوت في مادة « ترغعوز » واهل بغداد من النصارى يصحفون الكلمة فيقولون تعروزي . وكذا عامة مسلمي الموصل.